ظاهرة التفنُّن في النَّصِّ القرآني

إعداد

الدكتور / صدِّيق مصطفى الريح
أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية
كلية العلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد
كلية الآداب - جامعة الخرطوم

الملخص

يعنى هذا البحث باستجلاء ظاهرة التفنُّن في القرآن الكريم ، ممهِّداً لذلك بالحديث عن مفهومه وتحقيق القول فيه، متبِعاً ذلك التمهيد بثلاثة مباحث تتناول القول بوجوده في القرآن مع بيان مدى شيوعه فيه ، ثم موقف العلماء منه، مع التركيز على الجوانب المتعلِّقة بإثبات الظَّاهرة هذه من أقوال العلماء ، والاختلاف في عدِّ التفنُّن غرضاً بلاغياً بذاته في القرآن ، وأخيراً علاقة هذه الظَّاهرة بقضية الإعجاز متبعاً في ذلك المنهج الوصفي التحليلي ، مما قاد إلى عدد من النَّتائج من أبرزها أنه لم ترد لفظة التفنُّن بوصفها مصطلحاً في كتب البلاغيين، وإن وردت هذه اللَّفظة ومشتقَّاتها في بعض مؤلَّفات القرن الثَّالث الهجري ، مقترنة بالاقتدار على تنويع الأساليب. كما كثر قول المفسِّرين بوجود التفنُّن في أسلوب القرآن، ابتداء من القرن السَّادس الهجري . كما شاع ذكر التفنُّن مرتبطاً ببلاغة القرآن عند المتأخِّرين. كما بينت الدراسة أنَّ التفنُّن غرض بلاغي مفهوم مما ورد في نُقول عن العلماء. والتفنُّن من وجوه الإعجاز إذ به يتحقَّق معنى تحدِّي العرب بما في لسانهم ، ليظهر عجزهم فيما يحسنون. كما بينت الدراسة تفرد أسلوب القرآن على أساليب العرب بما فيه من التفنُّن المعجز، وأخيراً، القول بأنَّ التفنُّن وجه من وجوه الإعجاز البلاغي ، يؤكِّد حقيقة أنَّ وجوه الإعجاز في القرآن غير محدودة .

The phenomenon of lecting, or linguistic variety, in the Qur'anic text

By

Dr. Siddique Ar-Rayeh
Associate Professor of Arabic,
Khartoum University

Abstract

This paper aims to disambiguate the phenomena of using a variety of rhetorical styles in the Holy Quran, known as lects, with a preface about the concept and a review of relevant literature on the topic. The paper is made up of three treatises that claim that lecting is pervasive in the Qur'anic text. The paper tackles scholarly writings on the use of style variation or lecting and how scholars of rhetoric and Qur'anic studies addressed it. The paper also stressed the features of lecting as manifested in scholarly reviews that views or views not lecting as a rhetoric device in the Qur'an. Eventually, the paper relates lecting to rhetoric challenges in the Qur'an using a descriptive analytic method of research. The paper highlights findings from this descriptive analysis, concluding that lecting, or variation of rhetoric style, was not a common term in the relevant scholarly literature, but it later appeared in some 10th century AD writings with its variant variation of style. Exegetists started to use the term lecting of variation of style more pervasively in their writings in the 13th century AD. Then lecting was a common term linked to Qur'anic rhetoric especially in late centuries' scholarly writings. This study showed that lecting is a target of rhetoric in its own right clearly perceivable in established literature. Lecting is also a feature of rhetoric challenge in the Qur'an as a divine book originally revealed to challenge the eloquent speakers of Arabs to challenge their linguistic talents. The study showed that the variety of styles in the Qur'an is more superior than the standard styles of Arabs in a challenging way. Finally, the study concluded that lecting is a feature of Qur'anic rhetoric, but the variety of styles in Qur'an is unlimited.

مفهوم التفنُّن:

في اللُّغة: قال ابن فارس (**١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ٤/ ٤٣٥**) في مادَّة فنن:" (فن) الفاء والنُّون أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على تعنية، والآخر على ضرب من الضُّروب في الأشياء كلِّها. فالأول: الفنُّ، وهو التعنية والإطراد الشَّديد، يقال: فنَنْته فنَّاً، إذا أطردته وعنَّيته. والآخر الأفانين: أجناس الشَّيء وطرقه ".

وقال ابن منظور (**بدون، ١٣/ ٣٢٦**) في المادَّة نفسها:

" الفنُّ واحد الفنون وهي الأنواع، ... والفنُّ الضَّرب من الشَّيء، والجمع أفنان وفنون... يقال رعينا فنون النَّبات، وأصبنا فنون الأَموال... والرجل يفنِّن الكلام؛ أَي يشتقُّ في فنٍّ بعد فنٍّ، والتفنُّن فعْلُك... وافتنَّ الرجل في حديثه وفي خطبته إِذا جاء بالأفانين... من قولهم افتنَّ الرجل في كلامه وخصومته، إِذا توسَّع وتصرف... وافتنَّ أَخذ في فنون من القول....".

وكما يلاحظ أنَّ المادَّة تدور حول معنى التنويع والتصرف والتوسُّع، وأنَّ كلمة تفنُّن تعني فعْلَ ذلك كما رأينا عند ابن منظور. وقد ذكرها نشوان الحميري (**١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ٨/ ٥٠٧٧**) من صفة المفعول لا الفاعل كما هي عند ابن منظور، فقال: " (التفنُّن): فنَّنه فتفنَّن: أي صار فنوناً".

وفي اصطلاح البلاغيين مفهومها - حسب ما يبدو من استعمالهم لهذه الكلمة ومشتقَّاتها - لا يبعد عن المعنى اللُّغوي إذ جاءت بمعنى تنويع الأساليب، مع التصرف والتوسُّع فيها بالمغايرة بين طرائق القول. وقلت على حسب ما يبدو من استعمالهم؛ لأنَّي لم أجد كلمة التفنُّن في كتب العلم بوصفها باباً من أبواب البلاغة، إذ خلت كتب القدماء من ذلك، وإن وردت لفظة التفنُّن، أو كلمة من مادَّتها عند الجاحظ (**١٤٢٣هـ، ٣/ ٢٦٤**)، وابن قتيبة (**١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ص١٣**)، وعبد القاهر الجرجاني (**بدون، ص١٠**)، والزَّمخشري (**١٤٠٧ هـ، ١/ ١٤**)، وابن الأثير (**١٩٩٥م، ٢/ ٣، ٧٩**)، كما خلت كتب المتأخِّرين إلَّا من استعمالها بذلك المعنى، كما هو الحال عند السَّعد التفتازاني (**١٤١١هـ، ص ٣١٨**)، والقلقشندي (**١٩٨٧م، ١٠/ ٣١٩**)، وبعض مفسِّري القرآن مثل الألوسي (**بدون، ١/ ٨٩ و٢٦٩**)، وابن عاشور(**١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، ١/ ١١٤، ٣١٠**)، وهو من الَّذين أكثروا من استعمال هذا المصطلح. كما شاعت الكلمة في كتب المعاصرين، دون أن يقف أحدهم ليذكرها بمعنى اصطلاحي، حتى أولئك الَّذين وضعوا معاجم للمصطلحات

البلاغية مثل: الدكتور أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية، والدكتور بدوي طبانة في معجم البلاغة العربية، والدكتورة إنعام عكاوي في المعجم المفصَّل في علوم البلاغة. وإن وجدت مصطلحات مقاربة لمعناها مع شواهد وصفت في كتب السَّابقين بالتفنُّن، ومن تلك المصطلحات: التصرف (**ابن أبي الإصبع، ١٩٦٣، ص٥٨٢**)، والاقتدار(**ابن أبي الإصبع، ١٩٧٣، ص٢٨٩**).

والعذر للمعاصرين ملتمس في كونهم يذكرون ما وجدوا من مصطلحات، لا ابتداع غير ما لم يجدوا. أما التعليل لعدم ذكر العلماء الأوائل لهذا، فقد يرجع أساساً إلى طبيعة الدَّرس البلاغي الَّذي كان يعنى بالجزئيات، ويقوم على بلاغة الكلمة والجملة في الغالب، كما يأخذ عليهم بعض الباحثين المعاصرين (**الخولي، ١٩٦٩، ص ٩٧- الشايب، ٢٠٠٣م، ص٢١**)، لاسيما أنَّ التفنُّن لا يعنى بذينك الأمرين، إنما هو معني بالأساليب من حيث تنوعها والتصرف فيها، فهو يعنى بالنَّظرة الكلِّية إلى النَّصِّ، والمغايرة بين أساليبه وإن تباعدت مواقعها، وإن ذلك مما لا تعنى به البلاغة عند القدماء في الغالب الأعم.

وإذا ما رجعنا إلى التعريف الاصطلاحي الَّذي أشرنا إلى أنَّه مستخلص من استعمال الأوائل – كما سيأتي بالتفصيل - فهو التنوع في الأساليب، والمغايرة بين طرائق القول بالتصرف والتوسُّع، نجد كثيراً من الإشارات إليه، نكتفي منها هنا ببعض الأمثلة:

- **أولها** قول ابن قتيبة (**١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ص١٣**) عن التفنُّن في كتابه تأويل مشكل القرآن:

" فالخطيب من العرب، إذا ارتجل كلاماً في نكاح، أو حمالة، أو تحضيض، أو صلح - أو ما أشبه ذلك - لم يأت به من وادٍ واحد، بل يفتنُّ؛ فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السَّامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين، ويشير إلى الشَّيء ويكنِّي عن الشَّيء. وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام".

- **ثانيها** ما قاله القلقشندي (**١٩٨٧م، ١٠/ ٣١٩**) متحدِّثاً عن خطبة لعلي بن أبي طالب ﷺ، قال: **" مع التفنُّن في العبارة، واختلاف المعاني والألفاظ، والتقديم والتأخير، بحسب ما تقتضيه حال المنشئ، وتؤدِّي إليه قريحته".**

- **ثالثها** ما أورده المقري (**١٩٩٧م، ٣/ ٥٦٥**) مشيراً إلى دلالة التفنُّن على معنى التوسُّع والتصرف في الكلام إذ قال:

" وحكي أنَّ الوزير أبا الوليد ابن زيدون توفيت ابنته، وبعد الفراغ من دفنها، وقف للنَّاس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكَّر لهم، فقيل: إنَّه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد، قال الصَّفدي: وهذا من التوسُّع في العبارة، والقدرة على التفنُّن في أساليب الكلام، وهو أمر صعب إلى الغاية".

وهو بهذا المعنى من المهمات الَّتي يراعيها البليغ عادة؛ لأنَّ بعض النَّاس قد يتأثَّر بالإطناب دون الإيجاز، وبعضهم قد يتأثَّر بالترسُّل دون السَّجع، وبعضهم قد يتأثَّر بألفاظ الكناية دون التصريح، وغير ذلك مما يتهيأ من إمكانيات تقليب الظَّاهرة اللغوية في الكلام، لتوفير أكثر ما يمكن من الدَّلالة فيها، بقصد تجاوز الدَّلالة الضَّيقة إلى دلالات أوسع، متولِّدة عن تفاعل مختلف إمكانيات التقليب الَّتي يبدعها المتكلِّم في الكلام.

التفنُن البلاغي والقرآن

أ- القول بوجوده في القرآن

كثر القول بوجود التفنُّن في أسلوب القرآن، واطَّرد، وقد أشار إليه باللَّفظ الصَّريح عدد غير قليل من العلماء - وخاصَّة المفسِّرين - ابتداء من القرن السَّادس الهجري. ولعلَّ من أوائل الإشارات إليه ما كان عند الزَّمخشري (١٤٠٧ هـ، ١/ ١٤) في حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، إذ قال عن الالتفات في الآية بأنَّ الرجوع من الغيبة إلى الخطاب يستعمل **"على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه؛ ولأنَّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السَّامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"**.

ويصرح الزَّمخشري (١٤٠٧هـ، ٢/ ٤٢٤) بلفظ التفنُّن عند وقوفه على قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]، قال:

" فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في سوف تعلمون؟ قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفي تقديري بالاستئناف الَّذي هو جواب لسؤال مقدَّر، كأنَّهم قالوا: فما ذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا، وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف، للتفنُّن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب".

وفي القرن السَّابع الهجري ذكره الرازي (١٤١٣هـ-١٩٩١م، ص١٤٣، ١٤٤) وهو يتناول تكرار المعنى في أكثر من سورة قرآنية بأسلوب مختلف، وبعبارة تخالف العبارة في سورة أخرى مع أنَّ القصَّة واحدة، فيقول:

" فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا حكاية عن السَّحرة الَّذين آمنوا وعن فرعون: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأعراف: ١٢١] إلى قوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦]، ثم حكى عنهم هذا المعنى في سورة طه، وسورة الشُّعراء بزيادة ونقصان في الألفاظ المنسوبة إليهم، وهذه الواقعة ما وقعت إلَّا مرة واحدة، فكيف اختلفت عبارتهم فيها؟ قلنا: الجواب عنه أنَّهم إنَّما تكلَّموا بلغتهم لا باللُّغة العربية: و حكى الله تعالى ذلك عنهم باللُّغة العربية مراراً، لحكمة اقتضت التكرار والإعادة، نبينها في سورة الشُّعراء - إن شاء الله تعالى - فمرة حكاه

مطابقاً للفظهم في الترجمة رعاية للَّفظ، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جرياً على عادة العرب في التفنُّن في الكلام، والمخالفة بين أساليبه لئلا يملَّ إذا تمحض تكراره".

وكثر ذكر التفنُّن عند طائفة من مفسِّري القرنين الثَّامن والتاسع الهجريين، فمنهم في القرن الثَّامن ابن جماعة (١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص١٠٩)، فحينما وقف عند المخالفة بين اللَّفظين (ألفينا) و(وجدنا) في قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقوله في موضع آخر: ﴿ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، قال **"جوابه: أما (ألفينا) و(وجدنا) فمعناهما واحد، واختلاف لفظهما للتفنُّن في الفصاحة والإعجاز".**

وكذلك عند وقوفه على قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، و: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ ﴾ [النور: ٥٨]، قال (**ابن جماعة ١٤١٠هـ -١٩٩٠م، ص ٢٧٣**): **"ذلك كما قدَّمنا مرات للتفنُّن؛ لكراهة التكرار لما فيه من مجِّ النُّفوس".**

ومن مفسِّري القرن نفسه نصَّ على وجود التفنُّن أبو حيان (**١٤٢٠هـ، ٩/ ١٧**) في مواضع منها التعبير بصيغة الماضي (أرسل) مع الرياح كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، ثم جاءت بصيغة المضارع في نحو قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [الروم: ٤٨]، و: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فيقول معلِّلا **" كيف جاء في الإرسال بالمضارع ؟ وإنَّما هذا من التفنُّن في الكلام والتصرف في البلاغة".**

ومنها قوله في الآية: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يس: ٢٠]، وهنا تقدَّم: من أقصى المدينة، وفي الآية: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ [القصص: ٢٠] تأخَّر، وعلَّق على ذلك بقوله (**أبو حيان، ١٤٢٠هـ، ٩/ ٥٥**): **"هو من التفنُّن في البلاغة".**

ومن علماء منتصف القرن المذكور نجد أنَّ السَّمين الحلبي (**بدون، ٥/ ٢١٩**) قد أشار إليه في مواضع منها حين قال: **"وفي هذه الآية الكريمة ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فقدَّم المخاطبين، وفي الإسراء قدَّم ضمير الأولاد عليهم فقال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١]، فقيل: للتفنُّن في البلاغة".**

وفي أواخر القرن نفسه لا يكتفي الزَّركشي (**١٣٩١هـ، ٣/ ٣٢٥-٣٢٦**) بالقول بوجود التفنُّن في القرآن، بل ينقل عن البلاغيين ضرورته، وأهمية المغايرة في الأساليب لما في ذلك من فوائد تتحقَّق به، يقول:

" اعلم أنَّ للالتفات فوائد عامة وخاصَّة، فمن العامة التفنُّن والانتقال من أسلوب إلى

آخـر؛ لما في ذلك من تنشيط السَّامع، واستجلاب صفائه، واتساع مجاري الكلام، وتسهيل الوزن والقافية. وقال البيانيون إنَّ الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال، حسن تغيير الطَّريقة ".

وفي القرن التاسع الهجري قالت بوجود التفنُّن في القرآن جماعة، نذكر منهم ابن عرفة (١٩٨٦م، ١/ ١٠٥) الَّذي ذهب إلى ضرورة وجوده في القرآن بوصفه من وسائل جذب انتباه المتلقِّي؛ لأنَّ " **الكلام لو أجري على أسلوب واحد، لم يكن فيه تلك اللَّذاذة، وإذا اختلف أسلوبه ألقى السَّامع إليه سمعه، وهو تنبيه، وطلب إحضار ذهنه من قريب، ومن بعيد**".

ومنهم ابن عادل الدمشقي، الَّذي لم يكتف بالإشارة إلى وجود التفنُّن في التنزيل في عدَّة مواضع، بل أورد بعض قراءات القرآن الَّتي يظهر فيها التفنُّن، ففي قوله جلَّ شأنه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النساء: ١٢٤]. قال (**ابن عادل، بدون، ٧/ ٢٩**):

" قوله (يدْخُلونَ) قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وأبو بكر عن عاصم: (يـدْخَلون) هنا ، وفي مريم [يريد الآية ٦٠: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾] **، وأول غافر** [يريد الآية ٤٠: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾] **بضم حرف المضارعة ، وفتح الخاء مبنياً للمفعول ، وانفرد ابن كثير وأبو بكر بثانية غافر** [أي الآية ٦٠: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾] ، **وأبو عمرو بالَّتي في فاطر**[أي الآية ٣٣ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾]، **والباقون: بفتح حرف المضارعة، وضم الخاء مبنياً للفاعل ، وذلك للتفنُّن في البلاغة**".

وفي أواخر القرن ممن أشار إليه البقاعي (١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ٣/ ٥٠) في قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [الأعراف: ٦٤]، قال:

" وعدِّي هنا فعل النَّجاة بالهمزة وهي الأصل في التعدية وقرنت بالَّذين؛ لأنَّه أخلص الموصولات وأصرحها، ولما أعيدت القصَّة في سورة يونس عليه السلام [إشارة إلى ما في الآية ٧٣: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾] **كان الأليق بكلام البلغاء، والأشبه بطرائق الفصحاء التفنُّن في العبارة، فعدِّي التضعيف. مع ما فيه من الأبلغية...**".

وفي أول القرن العاشر وقف السُّيوطي (**١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ٣/ ٤٧**) عند مواضع من التفنُّن، منها في قوله:

" قد يقدَّم لفظ في موضع، ويؤخَّر في آخر،... لقصد التفنُّن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدَّة أساليب كما في قوله: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟

ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [الأعراف: ١٦١]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال في الأنعام: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ٩١]".

وفي موضع ثانٍ (السُّيوطي، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ٣/ ٣٩١) قال:

"وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي إبراهيم [أي الآية ٦ ﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾] (ويذبِّحونَ) بالْواو؛ لأنَّ الأولى من كلامه تعالى لهم، فلم يعدِّد عليهم المحن تكرماً في الخطاب، والثَّانية من كلام موسى فعدَّدها، وفي الأعراف [أي الآية ١٤١ ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾] يقتلُونَ، وهو من تنويع الألفاظ المسمى بالتفنُّن".

وفي آخر القرن ذكر التفنُّن أبو السُّعود (بدون، ١/ ٢٩) في مواضع من تفسيره، منها في قوله عن المخالفة في إعراب بعض المنصوبات والمرفوعات في القرآن بالقطع عن إعراب ما قبلها مدحاً أو ذماً، قال:

"فقد خولف للافتنان؛ أي للتفنُّن الموجب لإيقاظ السَّامع وتحريكه إلى الجدِّ في الإصغاء، فإنَّ تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني، وصرفه عن سننه المسلوك، ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلِّم، ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب".

ومن المتأخِّرين عرض له ابن عجيبة (١٤٢٣هـ، ١/ ٣٤) حين ذكر الالتفات متابعاً الزَّمخشري في ذكره، وربطه للالتفات بالتفنن في هذا الموضع من القرآن ، وإن زاد عليه بالنَّصِّ على اسم التفنُّن، وتجميع شواهده، إذ يقول:

" ومن عادة العرب التفنُّن في الكلام والعدول عن أسلوب إلى آخر، تطرية وتنشيطاً للسَّامع، فتعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلُّم، كقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ ﴾ [يونس: ٢٢]، ولم يقل (بكم)، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ ﴾ [فاطر: ٩]، أي: ولم يقل: فساقه....".

كما ذكره الألوسي والطَّاهر بن عاشور في عدد كبير من المواضع من تفسيريهما المعروفين، وقد امتاز ابن عاشور - خاصَّة- بذكر التفنُّن في تفسيره بصفة لافتة، حيث ذكر له أساليب

متعدِّدة. وعدَّه باباً من أبواب البلاغة العربية، يقول في ذلك (**ابن عاشور، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١/ ١١٤**): **" ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملاً على لطائف وخصوصيات تتعلَّق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة، أو تتعلَّق بزيادة الفصاحة، أو بالتفنُّن مثل: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢]"**.

وبرز اهتمامه بالتفنُّن في مقدِّمات تفسيره، إذ أفرد له حيزاً، ذاكراً نماذج له من القرآن، تبين أنَّ التفنُّن ظاهرة أسلوبية، لا تخطئها العين في القرآن بكامله (**ابن عاشور، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١/ ٦١**).

ومما سبق من تتبُّع للنَّماذج من كتب العلماء المقرين بوجوده - بل بأهميته - يتبين لنا أمر آخر، ألا وهو شيوع التفنُّن الأسلوبي في النَّصِّ القرآني، إلى الحدِّ الَّذي يمكننا وصفه فيه بالظَّاهرة، ففي أقوال - المتأخِّرين والمعاصرين خاصَّة - ما يدلُّ على أنَّ التفنُّن ظاهرة أسلوبية انتظمت الكتاب بكامله، على مستوى الفنون الَّتي عالج بها موضوعاته: كالقصَّة، والحوار، والتمثيل.. الخ، وعلى مستوى تركيب العبارات بالمغايرة بين طرائق التعبير فيها، بالتقديم والتأخير، أو الحذف والذِّكر، أو الزِّيادة والنُّقصان، وعلى مستوى الألوان البيانية والبديعية كالسَّجع والإرسال، والحقيقة والمجاز، والكناية والتصريح، وعلى مستوى الخطاب كالمغايرة في المخاطبة بين التكلُّم، والغيبة، والخطاب، وعلى مستوى الصِّيغ، وعلى مستوى الإخبار والإنشاء.. إلى كلِّ شيء تقريباً، إذ لم يأت فيه الكلام إذا نظرنا إليه نظرة كلِّية على طريقة واحدة، وفيما يلي نمثِّل بشيء من الأقوال الدَّالَّة على ما تقدَّم:

- قول الألوسي (**بدون، ١/ ٢٦٩**): **"وبالجملة التفنُّن في التعبير لم يزل دأب البلغاء، وفيه من الدَّلالة على رفعة شأن المتكلِّم ما لا يخفى، والقرآن الكريم مملوء من ذلك "**.
- قول ابن عاشور (**١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١/ ١١٤**):

" ومن أساليبه ما أسميه بالتفنُّن، وهو بداعة تنقُّلاته من فنٍّ إلى فنٍّ، بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنُّبا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنُّن عند بلغاء العربية، فهو في القرآن كثير".

كما يفهم كون التفنُّن ظاهرة في القرآن من تكراره عبارة **" على عادة القرآن في التفنُّن "** في أكثر من موضع (**ابن عاشور، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م**).

- قول محمد رشيد رضا (**١٩٩٠، ٧/ ٢٧١**) عن القرآن **" على ما امتاز به في مقام التفنُّن والتنْويع والبلاغة المعجزة في كثرة الأساليب"**. وقوله (**رضا١٩٩٠، ٩/ ٦٢**) معلِّلاً لشيوع هذه الظَّاهرة في القصص القرآني خاصَّة الَّذي يراد به الهداية والعظة **" ولابدَّ في ذلك من تكرار المعاني مع التفنُّن في الأسلوب، والتنويع في نظم الكلام، وفواصل الآي، وتوزيع الفوائد وتفريقها، بحيث**

يوجد في كلِّ قصَّة ما لا يوجد في غيرها".

- قول سيد طنطاوي (١٩٩٧م، ٥/ ٥٠) يعلِّل لشيوعه باحتياج المرشدين والدُّعاة إليه في مجال الدَّعوة، وأهميته في الوعظ والإرشاد بأنَّ " التزام أسلوب واحد في إقامة الحجَّة على الخصم يفضي إلى السَّآمة والملل، ومن هنا فقد لون القرآن أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها، وصدق الله إذ يقول: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ [الأنعام: ٦٥].

بـ هل التفنُّن في القرآن غرض بلاغي بذاته؟

القول بأنَّ التفنُّن غرض بلاغي مفهوم مما ورد في نُقول عن العلماء قد سبقت، وقد صرح بعضهم بذلك، كما في:

- قول الزَّركشي (**١٣٩١هـ، ٣/ ٣٢٦، ٣٢٥**): **" وقال البيانيون إنَّ الكلام إذا جاء على أسلوب واحد، وطال حسن تغيير الطريقة".**
- وقول التهانوي (**١٩٩٦م، ١/ ٩٣٣**): **"إعادة القصَّة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدِّي معنى واحداً، وذلك من التفنُّن، فإنَّ ذلك أمر صعب تظهر به الفصاحة والبلاغة".**
- وقول القاسمي (**١٤١٨هـ، ١/ ٦٠**): **"ومنها التفنُّن في علم فنون البلاغة، والخوض في وجوه الفصاحة، والتصرف في أساليب الكلام".** وقوله: (**١٤١٨هـ، ٧/ ٢١٨**): **"والتفنُّن طريقة مسلوكة في علم البلاغة".**
- وقول ابن عاشور (**١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١٤/ ٣٢٧**): **" التفنُّن من مقاصد البلغاء كراهية للتكرير؛ لأنَّ تكرير الأسلوب بمنزلة تكرير الألفاظ ".**

وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك، فعدَّه من علم البديع كالسُّيوطي (**١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص٢٠**)، وهو يذكره ضمن ألوان البديع في رسالته تلك الَّتي تتضمن مائة وعشرين نوعاً من أنواع البديع في آية واحدة من القرآن الشَّريف، كما سيأتي. أما صاحب (حدائق الروح والريحان) فقد نصَّ على كونه من البديع قائلاً عنه: **" وهو من المحسِّنات البديعية أيضًا". (الأرمي، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ٨/ ١٣٥)**

ونفيد مما سبق أنَّ العلماء والباحثين في بلاغة القرآن لم يختلفوا في كونه من البلاغة، لكن ثمة اختلاف نشأ بعد ذلك وكان يدور حول الإجابة عن السُّؤال: هل التفنُّن يصلح أن يكون في القرآن غرضاً بلاغياً بذاته يعول عليه، بحيث يكون هو الغرض "الوحيد" من إيراد صيغة دون غيرها، أو تعبير دون غيره.. ؟ وتتفرع من السُّؤال السَّابق عدَّة أسئلة: هل يمكن أن توجَّه به وحده أوجه الاختلاف في آيات المتشابه اللَّفظي.. ؟ وهل هو مجرد التنويع والتصرف فقط.. ؟ وهل هو حلية شكلية تخلو من الغرض المعنوي والنُّكتة كما يوحي به اسمه ؟

وقد وقع الاختلاف في ذلك فيما يبدو من تعليقات الَّذين وردت كلمة التفنُّن في كتبهم، فمنهم من توحي عبارته بأنَّ التفنُّن يصلح أن

يكون مقصداً لذاته، ومن أمثلة ذلك:

١- ما قاله الزَّمخشري (١٤٠٧ه، ٣/ ١٠٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٤]، قال:

" فإن قلت: هلَّا قيل يعلم السِّر لقوله: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ [الأنبياء: ٣]، قلت: القول عام يشمل السِّر والجهر، فكان في العلم به العلم بالسِّر وزيادة، فكان آكد في بيان الاطِّلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السِّر، كما أنَّ قوله: يعلم السِّر، آكد من أن يقول: يعلم سرهم. ثم بين ذلك بأنَّه السَّميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية ؟. فإن قلت: فلِم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦]، قلت: ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كلِّ موضع. ولكن يجيء بالوكيد تارة، وبالآكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع، وبالأحسن في غيره؛ ليفتنَّ الكلام افتناناً ".

فالمغايرة في أسلوب التوكيد كما يفهم من عبارته لمجرد التفنُّن.

٢- ومنه قول ابن عاشور (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١/ ١٤٠) موافقاً قول من قال بأنَّ (بسم الله الرحمن الرحيم) ليست من أوائل السُّور، باعتبار أنَّ القرآن نزل على مناهج العرب في الكلام، والعرب كانت ترى التفنُّن من البلاغة، لاسيما في افتتاحاتها، يقول:

" وأنا أرى في الاستدلال بمسلك الذَّوق العربي أن يكون على مراعاة قول القائلين بكون البسملة آية من كلِّ سورة، فينشأ من هذا القول أن تكون فواتح سور القرآن كلَّها متماثلة، وذلك مما لا يحمد في كلام البلغاء، إذ الشَّأن أن يقع التفنُّن في الفواتح، بل قد عدَّ علماء البلاغة أهم مواضع التأنُّق فاتحة الكلام وخاتمته، وذكروا أنَّ فواتح السُّور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البيان وأكملها، فكيف يسوغ أن يدَّعى أنَّ فواتح سوره جملة واحدة ؟ مع أنَّ عامة البلغاء من الخطباء، والشُّعراء، والكتاب يتنافسون في تفنُّن فواتح منشآتهم، ويعيبون من يلتزم في كلامه طريقة واحدة، فما ظنُّك بأبلغ الكلام؟".

فالتنويع في افتتاحات السُّور، وعدم مجيئها على طريقة واحدة - كما يفهم من عبارته - هو ضرب من التفنُّن مقصود لذاته، اقتضاه ما اعتاده العرب في كلامهم من استحسان التنويع في فواتح الكلام وخواتمه خاصَّة، وبذلك كان التفنُّن ضرورة أسلوبية في حدِّ ذاته، لئلا يخالف روعة البيان الَّتي ألفوها.

وإن كانت العبارات السَّابقة فيها إيحاء بأنَّ أصحابها يرون أنَّ التفنُّن قد يكون غرضاً بلاغياً بذاته، فإنَّنا نجد من يصرح بذلك تصريحاً كما فعل السَّمين الحلبي (**بدون، ٤/ ٤٥٠**)، قال:

" واختلاف الألفاظ في هاتين الآيتين - أعني آية البقرة [أي الآية ١٧٠ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

﴿ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾]، وآية المائدة [أي الآية ١٠٤ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾] من نحو قوله هناك: "اتبعوا"، وهنا "تعالوا"، وهناك "ألفينا"، وهنا "وجدنا" من باب التفنُّن في البلاغة، فلا تطلب له مناسبة".

والعبارة صريحة في أنَّ التفنُّن عنده غرض بلاغي بذاته، ولا يحتاج إلى مناسبة، بل أنَّ طلب المناسبة في مواضع منه مما يعدُّ من التكلُّف الَّذي لا ضرورة له.

والسُّيوطي ممن يعدُّه غرضاً بلاغياً ويدخله في أنواع البديع كما أشرنا في موضع سابق، وينصُّ عليه حينما يتناول آية من القرآن الشَّريف، ويستقصي ما فيها من ألوان البديع، كما فعل في الآية: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال فيها بأنَّ التفنُّن في ثلاثة مواضع، منها المخالفة بين النُّور والظُّلمات إفراداً وجمعاً (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص٢٠).

وممن توسَّع في عدِّ التفنُّن غرضاً بذاته الألوسي، وابن عاشور، وهما يطبِّقان ذلك على آيات من القرآن على نحو يجعله أقرب ما يكون إلى الظَّاهرة فيه خاصَّة في باب توجيه المتشابه اللَّفظي، كما في قوله عزَّ وجلَّ في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

فيريان أنَّ تقديم قوله في سورة البقرة : (وادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً) عَلَى قَولِهِ: (وقُولُوا حطَّةٌ)، والعكس في سورة الأعراف، إنما هو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنُّن، باعتبار أنَّ كلا القولين واقع قُدِّم أو أُخِّر. (**الألوسي، بدون، ١/ ٢٦٨- ٢٦٩، ابن عاشور، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ٨/ ٣٢٦**).

بينما ذهب عدد من المفسِّرين والباحثين في المتشابه اللَّفظي إلى عدد من التوجيهات الوجيهة، خلافاً للعالمين المذكورين اللَّذين يفردان التفنُّن بالذِّكر في كثير من المواضع، وكأنَّ ذلك نفيا لوجود أي غرض آخر سواه، مما يؤكِّد أنَّهما يريان أن يكون التفنُّن غرضاً بلاغياً بذاته.

ويرى بعض العلماء ضرورة وجود فائدة معنوية أو نكتة بلاغية إلى جانب التفنُّن، ومن ذلك ما قاله الشِّهاب الخفاجي (**١٢٨٣هـ، ٦/ ٣٣٠**) بأن القول بالتفنُّن كاف، ولكن الأليق بالقرآن وجود النُّكتة، وعبارته: **"وان كان التفنُّن كافياً في مثله، لكن اللَّائق بشأن التنزيل أن يكون له نكتة خاصَّة"**. بل يذهب الشَّهاب الخفاجي في ضرورة وجود

النُّكتة إلى حدِّ مهاجمة القول بمجرد التفنُّن دون النَّظر إلى وجود النُّكتة، ووصف القول بالتفنُّن في تلك الحال بأنَّه (عكازة أعمى)، مع الوقوف بالشَّرح والإيضاح لأمثلة اكتفى بعضهم فيها بإفراد التفنُّن على أنَّه هو الغرض الوحيد للمغايرة في الأسلوب، حين يعقِّب على قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣] بقوله: **" فجعل البصر مختوماً عليه بالغشاوة، فإن قلت: هل في تغاير أسلوب ما هنا، وثمة نكتة غير التفنُّن، فإنَّه عكازة أعمى" (الشِّهاب الخفاجي، ١٢٨٣هـ، ١/ ٢٩٦)**، ويشرع في بيان النُّكتة الزَّائدة على مجرد التفنُّن وقد أدارها حول التناسب.

وقد وقف أولئك العلماء عند نماذج من تلك الفوائد، ونبَّهوا إليها في مستويات مختلفة: من اللَّفظ، والصِّيغة، والتركيب، وغيرها، مشيرين إلى ما في التفنُّن من تجديد للمعاني، وما في التغاير الأسلوبي من فوائد يظفر بها من تدبَّر، والأمثلة الَّتي ذكروها على إرادته مع معنى إضافي كثيرة، نكتفي منها بمثال من سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩]، و ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف: ٨١]، و ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢]، وأبدى بعضهم **(الأرمي، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، ١٧/ ٢٧)** مع التفنُّن نكتة في اختلاف التعبير، وهي أن:

الأول: لما كان إفساداً محضاً عبَّر فيه بقوله: (فأَرَدْت أَنْ أَعِيبَهَا) أدباً مع الله.

والثَّاني: لما كان فيه نوع إفساد، ونوع إصلاح عبَّر فيه بقوله: (فأَرَدْنَا...).

والثَّالث: لما كان إصلاحاً محضاً، ونعمة من الله عبَّر فيه بقوله: (فأَرادَ ربُّكَ).

ومن المعاصرين كذلك من يأبى أن يستقلَّ التفنُّن غرضاً بذاته، يقول **(الصامل، ١٤٢٢هـ، ص١٨٦)**:

"وقد عزا بعضهم هذا الاختلاف - أي في صيغ المتشابه اللَّفظي- إلى التنويع في الأسلوب، أو ما يسمى التفنُّن في الكلام، وهذا سبب أراه لا يستقلُّ بنفسه، لأنَّ التنويع في الأسلوب أو التفنُّن فيه، إنَّما يلجأ إليه لإذهاب السَّأم والملل عن القارئ، وحاشا أن يصف أحد القرآن بذلك، فلا بدَّ من سبب يكون أصلاً، ويمكن أن يأتي التنويع سبباً آخر متفرعاً".

وإن اتفقنا معه في ضرورة وجود سبب يتفرع منه التفنُّن، إلَّا أنَّ رأيه بأنَّ القول بالتفنُّن فيه قدح في القرآن، لا نسلِّم له به، وهو يستند فيه إلى تعقُّب ابن الأثير للزَّمخشري، حين قال بأنَّ التفنُّن بالالتفات بنقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب **"أحسن تطرية لنشاط السَّامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد" (الزمخشري،**

١٤٠٧هـ، ١/ ١٤). إذ قال ابن الأثير (١٩٩٥م، ٢/ ٣):

"وليس الأمر كما ذكره، لأنَّ الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلَّا تطرية لنشاط السَّامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه، فإنَّ ذلك دليل على أنَّ السَّامع يملُّ من أسلوب واحد، فينتقل إلى غيره، ليجد نشاطاً للاستماع، وهذا قدح في الكلام، لا وصف له، لأنَّه لو كان حسناً لما ملَّ".

ثم قال مشيراً إلى ضرورة وجود فائدة إضافية على ذلك:

"والَّذي عندي في ذلك أنَّ الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلَّا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنَّها لا تحدُّ بحدٍّ، ولا تضبط بضابط ". (ابن الأثير، ١٩٩٥م، ٢/ ٤)

وهذا توجيه جيد من ابن الأثير، وفهم لمواقع الانتقال الَّتي تختلف فوائدها بحسب المقام، إذ لا يمكن أن تكون هناك فائدة واحدة فقط هي التطرية والتنشيط، لو سلَّمنا بها. ولكن القول بأنَّ قصد إبعاد السَّآمة والملل عن طريق التفنُّن فيه قدح في القرآن، وإشعار بنقص فيه، هو قول مردود لأسباب منها:

- أنَّ الملل قد يكون بسبب السَّامع أو القارئ لعدم الرغبة – مثلاً– أو وجود صوارف، لا بسبب كلام القرآن نفسه.
- لو صح أن يقال بأنَّ في هذا إشعاراً بنقص في القرآن، لكان غرض التشويق – مثلاً– منفياً أيضاً عن القرآن لنفس العلَّة؛ فإذا قيل: إنَّ القرآن لا يحتاج إلى إذهاب الملل لأنَّه ليس مملاً؛ فكذلك يلزم أن يقال: القرآن لا يحتاج إلى تشويق إذ هو مشوق أصلاً، ولا أحسب أنَّ أحداً ينفي غرض التشويق فيه.

وبناء على قول من قال بضرورة وجود نكتة مع التفنُّن، قد يذهب البعض إلى أنَّ القول بالتفنُّن فيه نوع هروب من تكلُّف التوجيه لما يصعب كشف كنهه في بعض الآيات، باعتبار أنَّ المتصور في الكلام البليغ أن يكون التفنُّن فيه لغرض معنوي قد يخفى؛ فنقول بالتفنُّن حتى لا نقع في التكلُّف؛ لأنَّ هناك مواضع يكون القول بالتفنُّن فيها أولى من ذكر شيء متكلَّف، وإن كان هذا الصَّنيع يثبت أنَّ التفنُّن ليس غرضاً يقصد لذاته، إذ هو تخلُّص من محاولة إدراك ما استغلق، كما يفهم من قول الألوسي (**بدون، ١/ ٢٦٩**) معترفاً بأنَّ الكشف عن أسرار التفنُّن في القرآن مما لا يتأتى لكلِّ إنسان إلَّا بتوفيق من الله، يقول:

"وبالجملة التفنُّن في التعبير لم يزل دأب البلغاء، وفيه من الدَّلالة على رفعة شأن المتكلِّم ما لا يخفى، والقرآن الكريم مملوء من ذلك، ومن رام بيان سر لكلِّ ما وقع فيه منه، فقد رام ما لا سبيل إليه إلَّا بالكشف الصَّحيح والعلم اللَّدني، والله يؤتي فضله من يشاء، وسبحان من لا يحيط بأسرار كتابه إلَّا هو".

وعبارته فيها دلالة على أنَّ التفنُّن لا يكون إلَّا لنكتة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وأنَّه

ليس الغرض البلاغي الوحيد في الآيات الَّتي ذكره فيها العلماء حتى المكثرين منهم مثله – بدلالة أنَّهم جاءوا به غرضاً من ضمن الأغراض، ووجَّهوا آيات كثيرة دون ذكر للتفنُّن، ولعلهم ذكروا التفنُّن في بعض المواضع هروباً مما قد يقع من التكلُّف في توجيه المتشابه اللَّفظي، خاصَّة وأنَّ الألوسي يعترف بأنَّ الكشف عن أسراره مما لا يتأتى لكلِّ إنسان.

وفي آخر الأمر نقول بأنَّ المنتظر من المفسِّر أن يبين معاني الآيات القرآنية، وأن يبحث عن الدَّلالة في كلِّ شيء في القرآن الكريم، حتى في مواطن التفنُّن الَّتي تشتمل عليها المفردات والتراكيب والأساليب، ولكنَّ المفسِّر مع بذله الجهد ستبقى عنده مواضع لا يصل فيها إلى إجابة شافية، وعندها قد يكتفي بالقول بالتفنُّن، ولا ملامة، فالقول بالتفنُّن لا ينفي وجود أمر معنوي خفي على الباحث، أو المفسِّر فلم يصل إليه، وإلَّا كان قد ذكره، بدليل أنَّهم كثيراً ما كانوا يقرنون التفنُّن بنكتة أخرى كما رأينا.

ج- التفنن وقضية الإعجاز

إنَّ الإعجاز بمعناه الحقيقي يقوم على تحدِّي من يملك أدوات التحدِّي، والعرب قد بلغوا حدَّاً لا يضاهى من الفصاحة والبيان، والقدرة على التفنُّن في ضروب القول، والتذوق للكلام البليغ، وفي ذلك قال ابن الأثير(**١٣٧٥هـ-١٩٥٦م، ص٧٣**) عنهم: **"كانوا أفصح النَّاس، وأبلغهم، وأكثرهم قدرة على التفنُّن في الكلام"**. فجاء التحدِّي لهم بما يملكون أداته، ويحسنونه، فلما تحدَّاهم الله به عرفوا عجزهم عن الإتيان بمثله، فاتجهوا إلى محاربته بأنفسهم وأموالهم، مع أنَّه قد طلب منهم ما هو أقلُّ من ذلك، وهو معارضة هذا القرآن ﴿**فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ**﴾ [البقرة: ٢٣]، فلما لم يعارضوه ثبت وقوع التحدِّي إلى يوم القيامة، ولما كانوا – وهم الأقدر – على المعارضة قد عجزوا، فمن كان بعدهم ممن هو أقلُّ قدرة بالضَّرورة أعجز عن المعارضة. **(الطَّيار، ١٤٣٣هـ، ص٥٠)**

ومن البدهي أنَّ القرآن نزل بلسان العرب الَّذين نزل عليهم القرآن آنذاك، لا بلسانهم بعد ذلك، ومن الثَّابت أنَّ التفنُّن من الطَّرائق الَّتي كانوا يسلكونها، فكان الأصل أن يجيء القرآن بطريقتهم، ويتحدَّاهم فيما يملكون أدواته؛ ليصح معنى الإعجاز. وهذا ما يؤكِّده قول الرافعي **(١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص٢٠)** متحدِّثاً عن ميل العرب الَّذين نزل عليهم القرآن إلى التفنُّن في كلامهم، معتمدين على ثراء لغوي في قبائلهم المختلفة، وكيف نزل القرآن بلسانهم، وسنن كلامهم مع خاصِّية الإعجاز، فقال: **"لقد كانت القبائل العربية مادَّة هذه اللُّغة، وسبب اتساعها واستفاضتها، وكان فحول الشُّعراء من الجاهلية كأنَّ كلَّ واحد منهم قبيلة في التفنُّن والإبداع: مجازاً، واستعارة، وبديعاً. ثم جاء القرآن الكريم فكان الغاية كلَّها "**؛ لأنَّ ما عرف للعرب من ذلك قليل في جنب ما أتى به القرآن الكريم، وهذا معنى من معاني إعجازه، كما يقول الرافعي (١٩٩٧، ١/ ١٩٦) في كتاب آخر.

وإذا كان الأمر كذلك فلا عجب أن يكون التفنُّن من وجوه الإعجاز، إذ به يتحقَّق معنى التحدِّي، فيما حذقوه، وجرى على ألسنتهم، وذلك حينما يخاطب القرآن العرب بسنن كلامهم، كما سماها الثَّعالبي وابن فارس في كتابيهما المشهورين [فقه اللغة وسر العربية، الصاحبي في فقه اللغة العربية]، هذه السُّنن أو الأساليب الَّتي يفهمها العرب، ويعرفون دقَّتها وجمالها، متحدِّياً لهم بما في لسانهم، ليظهر عجزهم فيما يحسنون.

وفي التفنُّن كلُّ البلاغة الَّتي تقوم على مراعاة مقتضى الحال، ومنه بلا شكَّ مراعاة حال المتلقِّي، وما ألفه من أساليب، فإنَّ خطباء العرب جبلوا على التفنُّن في إرسال الكلام وفق مقتضيات، تملي عليهم استخدام نمط لغوي يناسب الموقف الَّذي هم فيه، فيطنبون في مقام الإطناب، ويوجزون في موقف الإيجاز. وهكذا نرى المفوه من العرب كما يقول ابن قتيبة (**١٣٩٣ه-١٩٧٣م، ص١٣**):

"يختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السَّامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين، ويشير إلى الشَّيء، ويكنِّي عن الشَّيء، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام".

وعلى هذه الشَّاكلة انبنى النَّصُّ القرآني كما يشير قول الجاحظ (**١٤٢٤ه، ١/ ٦٤**) **"ورأينا أنَّ الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل، أو حكى عنهم جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام"**.

ولعلَّ العلَّة في ذلك واضحة؛ لأنَّ العرب هم معدن الفصاحة وأساطينها. يفسِّر ذلك كون إعجازية النَّصِّ القرآني تنهض باللُّغة، وسنن أهلها في الكلام، ومنها هذا التفنُّن في طرائق التعبير، لأنَّ عظمة القرآن في اللُّغة تجسِّد عظمة العرب فيها، وإلَّا لما كان للإعجاز القرآني من معنى يذكر.

والتفنُّن باب من أبواب الإعجاز باعتبار أنَّ اشتمال القرآن على أنواع أساليب الكلام العربي، والتفنُّن فيها، يتضمن حكمتين داخلتين في الإعجاز: أولاهما ظهور أنَّه من عند الله؛ إذ قد تعارف الأدباء في كلِّ عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم في أساليب معينة ، فالبليغ منهم كان لا يجيد إلَّا في اللَّون أو اللَّونين، وفي أساليب محدَّدة، وإذا ما عالج سواها اعتراه الضَّعف، وداخل كلامه القصور من حيث البلاغة والإجادة الَّتي كان عليها(**الباقلاني، ١٩٩٧، ص١٢٠**) خلافاً لما هو عليه القرآن من الجريان على نسق واحد في بلاغته، وقوة أسلوبه مع التفنُّن، أياً كان الموضوع الَّذي يعالجه.

والثَّانية أن يكون في ذلك زيادة التحدِّي لمن وجِّه إليهم ذلك التحدِّي، **"لئلَّا يقولوا: إنَّما عجزنا عن الإتيان بمثله؛ لأنَّه بغير لغتنا، وبغير السُّنن التي نَسْتنُّها"** (ابن فارس، **١٤١٨ه-**

١٩٩٧م، ص١٥٠). وبحيث لا يستطيع أحد أن يقول: إنَّ هذا الأسلوب لم تسبق لنا معالجته، وقد جاء القرآن بالأسلوب الوحيد المعجز، فلا نستطيع أن نأتي به إلَّا أن يكون هو هو، ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضناه كما قال ابن عاشور (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١/ ١١٣)، فلما جاء القرآن بالشَّيء الواحد بأساليب مختلفة، كان في هذا التفنُّن في الأساليب دحض هذه الحجَّة، ولذلك كانت آخر مراحل التحدي لهم هي طلب معارضة القرآن بأي شيء يماثله، وفي أي وجه من الوجوه، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

ولقد تفرد أسلوب القرآن بما فيه من التفنُّن بالغاً حدَّ الإعجاز، وأربى على أساليب العرب، وتفنُّنهم في طرائق التعبير والأداء، رغم بلوغهم الغاية في هذا المضمار، ومنها كما قال القاسمي (١٤١٨هـ، ١/ ٦٠) في تفسيره:

"التفنُّن في علم فنون البلاغة، والخوض في وجوه الفصاحة، والتصرف في أساليب الكلام، وهو أعظم منتحلاتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]".

ومن شواهد هذا التفنُّن المعجز ما يلي:

أولاً: تفنُّنه، وبداعة تنقلاته من فنٍّ إلى فنٍّ بطرائق الاعتراض والتذييل والتنظير، والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنُّبا لثقل تكرار الكلمة، وإكثاره من أسلوب الالتفات، وهو من أعظم أساليب التفنُّن عند العرب كما قال ابن عاشور (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١/ ١١٤).

ثانياً: عدوله عن تكرار اللَّفظ والصِّيغة فيما لا يقتضي التكرار بقصد التهويل ونحوه، ومما عدل فيه عن التكرار قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم: ٤]. **"فجاء في الآية لفظ قلوب جمعاً مع أنَّ المخاطب امرأتان، ولم يكرر الصِّيغة، ويقل (قلباكما) تجنُّباً لتعدُّد صيغة المثنَّى"**. (ابن عاشور، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١/ ١١٥)

ثالثاً: براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، إذ يبرز المعنى الواحد بألفاظ، وطرائق مختلفة، بمقدرة عظيمة لا تباريها، أو تقاربها مقدرة من فصحاء العرب. ولما كان المقام ليس مقام استقصاء، فإنَّ الأمثلة تكفي في الدَّلالة على المراد، ومن ذلك:

(أ) تنوع الصِّيغ في طلب الفعل من المخاطبين، فمن ذلك:

١- التصريح بلفظ من مادَّة "أمر": ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

٢- الإخبار بأنَّ الفعل مكتوب على المكلَّفين: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

٣- الإخبار بكونه واجب على النَّاس ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

٤- الإخبار عن الفعل المراد بأنَّه خير: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وغير ذلك كثير في هذا المجال(**الزُّرقاني، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ٢/ ٢٥٠**).

(ب) وفي النَّهي عن الفعل استعمل كذلك صيغاً متنوعة منها:

١- استعمال لفظة من مادة النَّهي: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: ٩].

٢- نفي الحلِّ عن الفعل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩].

٣- وصف الفعل بأنَّه ليس برا: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]. وغير ذلك كثير(**الزُّرقاني، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ٢/ ٢٥١**).

(ج) وفي التعبير عن إباحة الفعل استخدم طرائق كثيرة، منها:

١- التصريح بلفظ من مادة الحلِّ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١].

٢- نفي الإثم عن الفعل: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

٣- الأمر بالفعل مع قرينة صارفة عن الوجوب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وغيره كثير (**الزُّرقاني ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ٢/ ٢٥٢**).

رابعاً: تصرفه في حكاية أقوال المحكي عنهم، بصياغتها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه، لا على الصيغة الَّتي صدرت بها، كما قال ابن عاشور (**١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م، ١/ ١١٨**):

" فهو إذا حكى أقوالاً غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حدَّ الإعجاز بالعربية، وإذا حكى أقوالاً عربية تصرف فيها تصرفاً يناسب أسلوب المعبِّر، مثل ما يحكيه عن العرب، فإنَّه لا يلتزم حكاية ألفاظهم، بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثَّابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن، لا للأقوال المحكية".

خامساً: تعدُّد أساليب القرآن الكريم في الحديث عن قضية ما، فمثلاً قضية الوحدانية (أو التوحيد) جاءت أساليب القرآن فيها على غاية التفنُّن والإبداع، تلطُّفا في استدعاء النَّاس إلى التوحيد، وتأليفا لقلوبهم، وإقامة للحجَّة عليهم بكلِّ الأساليب، ومن ذلك:

أ- أسلوب الخبر المجرد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ب- أسلوب الخبر المؤكَّد، وقد تنوعت المؤكِّدات نفسها الَّتي جاء بها القرآن الكريم في شأن الوحدانية والتوحيد، ومنها: التأكيد بأنَّ، التأكيد باللَّام، التأكيد بالقسم. وقد اجتمعت في قوله تعالى: ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ ﴾ [الصافات: ١-٥]. وهناك التأكيد بأساليب القصر، كأسلوب النَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾ [طه: ١٤]. وأسلوب القصر بإنَّما: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وغيرهما.

ج- أسلوب الطَّلب كالاستفهام التقريري أو الإنكاري، قال تعالى: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣]. ومن هذا النَّوع الطَّلبي فعل الأمر مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، فإن نظرت إلى أول الجملة كانت إنشائية طلبية لصدارة فعل الأمر (قل)، وإن نظرت إلى مضمون الجملة أو مقول القول كانت خبرية، وفي الحالين هي إثبات للوحدانية، وأمر بالتوحيد على أبلغ الوجوه، وأوفاها. **(سعيد، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص١١٧)**

د- أسلوب الأمثال، وهو باب واسع في القرآن الكريم، يقصد به تقرير المعاني في نفس السَّامع بتجسيمها في صورة محسوسة ملموسة، عن طريق التشبيه، أو الاستعارة، أو غيرهما من أساليب البيان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣]. فقد ضرب الله تعالى مثلاً للَّذين يستنصرون بآلهة غير الله، فصورهم فيه بأنَّهم يستنصرون بأضعف شيء، وكأنَّهم العنكبوت في بيتها الواهن، فلا يغني عن أهله شيئًا. وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٢٩]، فهذان مثلان للمشرك في تخبُّطه وحيرته، وللموحد في راحته وسلامته، ولا يستويان أبدًا، كما لا يستوي عبد مملوك يتنازعه سادته، ويلقى العنت من اختلاف أخلاقهم وأوامرهم، وعبد مملوك لمالك واحد، لا يشقُّ عليه بشيء من ذلك. **("في التفسير الموضوعي"، بدون، ص٢٦)**

هـ- كذلك استخدم القرآن أيضاً أسلوب

المحاورة، وذلك بالحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر، فيتقرر في النَّفس أكثر من الخبر المجرد. قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٤١-٤٢]. فالآيات الكريمة لم تأت على طريق الخبر المجرد، وإنَّما جاءت على سبيل المحاورة بين طرفين، وهي تورد حوارا بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه المشرك، فيسأل إبراهيم أباه: لِم تعبد آلهة صماء عمياء لا تغني عنك شيئًا؟! وهو سؤال يبين حقيقة هذه الآلهة الباطلة، ويتضمن صفات الله الدَّاعية إلى تخصيصه وحده بالعبادة. (**"في التفسير الموضوعي"، بدون، ص٢٧**)

و- وهناك أيضًا أسلوب القصص، وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره، وقد عُني القرآن بهذا الأسلوب وأكثر منه؛ لما في القصَّة من تأثير في النُّفوس، وسهولة ذيوعها بين النَّاس. وأوضح مثال لذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه وأصنامهم وتحطيمه لها، وتقريره للتوحيد من خلال المشاهد المتتابعة، الَّتي جرت بينه وبين قومه، كما قصَّ الله علينا ذلك في عديد من سور القرآن، كالشُّعراء والصَّافات والأنبياء، ومنها أنَّه بعد أن حطَّم الأصنام سألوه عليه السلام، فسخر منهم، وأحالهم إلى الأصنام، فرجعوا إلى أنفسهم يتلاومون. ثم كان ما قصَّه القرآن الكريم: ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥-٦٧]. وفي هذا تقرير للتوحيد بأبلغ أسلوب، ونفي للشِّرك على أتم وجه، فضلًا عما فيه من تحقير للأصنام، وسخرية بالغة بمن عبدوها؛ فألغوا بذلك عقولهم. (**سعيد، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص١١٩**)

ونخلص مما سبق إلى أنَّ الاقتدار على تنويع الأساليب، والتفنُّن في طرائق التعبير بذات المستوى من البلاغة، والإبانة عن مضامين المعنى هو الإعجاز والتعجيز لمن بلغوا الغاية في مجال الفصاحة، والبلاغة، والاقتدار على الكلام، وكما يقول الرافعي (**١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م، ١/ ١٧٠**):

" وإنَّك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته في الوجوه المختلفة الَّتي يتصرف فيها؛ وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في وصفه حتى لا ترى في اللُّغة كلِّها أدلَّ على غرضك، وأجمع لما في نفسك وأبين لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز".

وخلاصة الأمر يمكن القول بأنَّ التفنُّن وجه من وجوه الإعجاز البلاغي، أو إن شئت الأسلوبي، اعتماداً على أنَّه من سنن العرب في كلامها، وهم من وجِّه إليهم التحدِّي، كما أنَّ هذا القول يؤكِّد حقيقة أنَّ وجوه الإعجاز في القرآن غير محدودة، وأياً كان ذلك القول فالقرآن معجز

بكلِّ ما يتحمله هذا اللَّفظ من معنى، فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه، ومعجز في بيانه ونظمه، وتفنُّنه، ومعجز بعلومه ومعارفه، ومعجز في تشريعه. والباحث المنصف الَّذي يطلب الحقَّ إذا نظر في القرآن- من أي النَّواحي أحبَّ- وجد الإعجاز فيه واضحاً جلياً. وذلك مما يؤكِّد قول من قال عن علوم القرآن:

"... وإن كثر عددها، وانتشر في الخافقين مددها، فغايتها بحر قعره لا يدرك، ونهايتها طود شامخ لا يستطاع إلى ذروته أن يسلك. ولهذا يفتح لعالم بعد آخر من الأبواب ما لم يتطرق إليه من المتقدِّمين". (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ١/ ١٩)

وهذه الحقيقة واضحة في كتب الإعجاز في القرآن قديما وحديثًا، فمن اللَّافت فيها تصريح كلِّ مؤلِّف منهم، أنَّه جاء بشيء جديد، لم يسبقه إليه أحد من قبل.

الخاتمة

قامت هذه الدِّراسة فيما سبق من صفحاتها على محاولة استجلاء ظاهرة التفنُّن، وتحقيق المصطلح وتتبُّعه عند العلماء، مع بيان مدى صلة ظاهرة التفنُّن بالنَّص القرآني من حيث وجودها فيه ، أو من حيث عدِّ التفنُّن غرضاً بلاغياً بذاته في القرآن، وأخيراً من حيث علاقة هذه الظَّاهرة بقضية الإعجاز، وقد خلصت الدِّراسة إلى عدد من النَّتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

- لم ترد لفظة التفنُّن بوصفها مصطلحاً في كتب البلاغيين – القدماء والمتأخِّرين –، وإن وردت هذه اللَّفظة ومشتقَّاتها في بعض مؤلَّفات القرن الثَّالث الهجري، مقترنة بالبلاغة والاقتدار على تنويع الأساليب في أداء الكلام.
- كثر القول بوجود التفنُّن في أسلوب القرآن، واطَّرد، إذ أشار إليه باللَّفظ الصَّريح عدد غير قليل من العلماء – وخاصة المفسِّرين – ابتداء من القرن السَّادس الهجري، ومن أوائل الإشارات إليه ما كان عند الزَّمخشري والرازي.
- شاع ذكر التفنُّن مرتبطاً ببلاغة القرآن وإعجازه عند طائفة من مفسِّري القرنين الثَّامن والتاسع الهجريين، وعند الباحثين في علوم القرآن أمثال الزَّركشي والسُّيوطي، كما استفاضت الإشارة إليه عند المتأخِّرين أمثال الألوسي وابن عاشور الَّذي امتاز بذكر التفنُّن في تفسيره بصورة لافتة.
- القول بأنَّ التفنُّن غرض بلاغي مفهوم مما ورد في نقول عن العلماء، وإن اختلفوا في عدِّه غرضاً بلاغياً في ذاته، خاصَّة في توجيه المتشابه من القرآن، فمنهم من يعدُّه كذلك، ومنهم من يشترط وجود نكتة إضافية معه.
- المتصور في الكلام البليغ أن يكون التفنُّن فيه لغرض معنوي قد يخفى؛ فيقال حينئذ بالتفنُّن احترازاً من التكلُّف؛ لأنَّ هناك مواضع يكون القول بالتفنُّن فيها أولى من ذكر شيء متكلَّف.
- التفنُّن من وجوه الإعجاز إذ به يتحقَّق معنى

التحدِّي، وهو يخاطب العرب بسنن كلامهم، أو الأساليب الَّتي يفهمونها، ويعرفون دقَّتها وجمالها، متحدِّياً لهم بما في لسانهم، ليظهر عجزهم فيما يحسنون.

- التفنُّن باب من أبواب الإعجاز؛ واشتمال القرآن على أنواع أساليب الكلام العربي والتفنُّن فيها يتضمن حكمتين داخلتين في الإعجاز: أولاهما ظهور أنَّه من عند الله؛ خلافاً لكلام بلغائهم، الَّذي قد يعتوره النَّقص عادة إن خرج من أسلوب إلى أسلوب آخر. وثانيتهما أن يكون في ذلك زيادة في التحدِّي لهم، بحيث لا يستطيع أحد أن يقول: قد جاء القرآن بالأسلوب الوحيد المعجز، ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضناه.
- تفرد أسلوب القرآن على أساليب العرب بما فيه من التفنُّن المعجز، ومن مظاهر ذلك : تفنُّنه، وبداعة تنقلاته من فنٍّ إلى فنٍّ - عدوله عن تكرار اللَّفظ والصِّيغة فيما لا يقتضي التكرار - براعته في تصريف القول، وإبراز المعنى الواحد بألفاظ، وطرائق مختلفة - تصرفه في حكاية أقوال المحكي عنهم، بصياغتها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه، لا على الصِّيغة الَّتي صدرت بها - تعدُّد أساليب القرآن الكريم في الحديث عن قضية ما كالتوحيد مثلاً.
- القول بأنَّ التفنُّن وجه من وجوه الإعجاز البلاغي، يؤكِّد حقيقة أنَّ وجوه الإعجاز في القرآن غير محدودة، والباحث المنصف الَّذي يطلب الحقَّ إذا نظر في القرآن- من أي ناحية- وجد الإعجاز فيه واضحاً جلياً.

المراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا:

١- **ابن أبي الإصبع**، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر المصري:
- (١٩٦٣)، تحرير التحبير، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- (١٩٧٣)، بديع القرآن، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢- **ابن الأثير**، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد:
- (١٣٧٥هـ-١٩٥٦م)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: د. مصطفى جواد و د. جميل سعيد، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي.
- (١٩٩٥م)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (ج٢)، بيروت، المكتبة العصرية.

٣- **ابن جماعة**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله، (١٤١٠هـ-١٩٩٠م)،

كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، المنصورة، دار الوفاء.

٤- **ابن عادل الدمشقي**، أبو حفص عمر بن علي، (بدون)، تفسير اللباب، (ج٧)، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥- **ابن عاشور**، محمد الطاهر بن محمد (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)، (ج١ ج٨ ج١٤)، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي.

٦- **ابن عجيبة**، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، (١٤٢٣ ه)، البحر المديد، (ج١)، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية ـ

٧- **ابن عرفة**: أبو عبد الله محمد بن محمد، (١٩٨٦م)، تفسير ابن عرفة، تحقيق: د.حسن المناعي، (ج١)، تونس، مركز البحوث بالكلية الزيتونية.

٨- **ابن فارس**: أبو الحسين أحمد بن زكريا:
- (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، معجم مقاييس اللُّغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هارون، (ج٤)، بيروت، دار الفكر.
- (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م)، الصاحبي في فقه اللغة العربية، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.

٩- **ابن قتيبة الدينوري**: أبو محمد عبد الله بن مسلم، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٢، القاهرة، دار التراث.

١٠- **ابن منظور**: محمد بن مكرم الأفريقي المصري، (بدون) لسان العرب، ج١٣، بيروت، دار صادر.

١١- **أبو حيان**: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، (١٤٢٠ ه)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، (ج ٩) بيروت، دار الفكر.

١٢- **أبو السعود**: محمد بن محمد العمادي، (بدون)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السُّعود)، (ج١)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

١٣- **الأرمي**: محمد الأمين بن عبد الله، (١٤٢١هـ-٢٠٠١م)، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، تحقيق: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي (ج٨ ج١٧)، بيروت، دار طوق النجاة.

١٤- **الألوسي**: محمود شهاب الدين أبو الثناء بن عبد الله بن محمود،(بدون)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (ج١)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

١٥- **الباقلاني**، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، (١٩٩٧م)، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٥، مصر، دار المعارف.

١٦- **البقاعي**، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، (١٤١٥هـ،١٩٩٥ م)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، (ج٣)، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٧- **التفتازاني**، سعد الدين مسعود بن عمر، (١٤١١هـ)، مختصر المعاني، بيروت، دار الفكر.

١٨- **التفسير الموضوعي**، (بدون)، مناهج جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة العالمية.

١٩- **التهانوي**، محمد بن علي، (١٩٩٦م)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج، (ج١)، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون.

٢٠- **الجاحظ**، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب:
- (١٤٢٣ هـ)، البيان والتبيين، (ج٣)، بيروت، دار ومكتبة الهلال.
- (١٤٢٤هـ)، الحيوان، (ج١)، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية.

٢١- **الجرجاني**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، (بدون)، أسرار البلاغة، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٢٢- **الحميري**، نشوان بن سعيد، (١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩م)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري وآخرين، (ج ٨)، بيروت - دار الفكر، دمشق - دار الفكر المعاصر.

٢٣- **الخولي**، أمين إبراهيم، (١٩٩٦م)، فن القول، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية.

٢٤- **الرازي**، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، (١٤١٣هـ- ١٩٩١م)، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، الرياض، دار عالم الكتب.

٢٥- **الرافعي**، مصطفى صادق:
- (١٩٩٧) تاريخ آداب العرب، (ج١)، المنصورة، مكتبة الإيمان .
- (١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م) تحت راية القرآن، ط٥، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية.
- (١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ج١)، ط٨، بيروت، دار الكتاب العربي.

٢٦- **رضا**، محمد رشيد، (١٩٩٠م)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، (ج٧ ج٩)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٧- **الزرقاني**، محمد عبد العظيم، (١٤١٥ه- ١٩٩٥م)، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، (ج٢)، بيروت، دار الكتاب العربي .

٢٨- **الزَّركشي**، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله (١٣٩١هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ج٣)، بيروت، دار المعرفة.

٢٩- **الزَّمخشري**: أبو القاسم محمود بن عمر (١٤٠٧هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل، (ج١-٣)، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي.

٣٠- **سعيد**: (الدكتور) عبد الستار فتح الله، (١٤١١هـ-١٩٩١م)، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ط٢، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣١- **السمين الحلبي**، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف، (بدون)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، (ج٤ ج٥) دمشق، دار القلم.

٣٢- **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر:
- (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ج ٣)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م)، فتح الجليل للعبد الذليل، تحقيق د. محمد رفعت زنجير، ط١، بيروت، مؤسسة الريان.

٣٣- **الشايب**، أحمد محمد، (٢٠٠٣ م)، الأسلوب، ط١٢، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

٣٤- **الشهاب الخفاجي**، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، (١٢٨٣هـ)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، (ج١ ج٦)، مصورة عن الطبعة الخديوية، بيروت، دار صادر.

٣٥- **الصامل**: (الدكتور) محمد بن علي، (١٤٢٢هـ)، من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، الرياض، دار كنوز إشبيليا.

٣٦- **طنطاوي**، محمد سيد،(١٩٩٧م)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (ج٥)، الفجالة – القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٧- **الطيار**(الدكتور): مساعد بن سليمان بن ناصر، (١٤٣٣هـ). الإعجاز العلمي إلى أين؟ ، ط٢، المملكة العربية السعودية – الدمام، دار ابن الجوزي.

٣٨- **القاسمي**: محمد جمال الدين بن محمد سعيد، (١٤١٨هـ)، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (ج١ ج٧)، بيروت، دار الكتب العلمية.

٣٩- **القلقشندي**، أحمد بن علي، (١٩٨٧م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف علي طويل، (ج١٠)، دمشق، دار الفكر.

٤٠- **المقري**: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد، (١٩٩٧م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ، دار صادر.